المُراقَب

للقصصي الروسي المعاصر تشيرلكوف

بقلم نظمي خليل

اعتادت ماريا أن تذهب كل مساء إلى المحطة تتوسم وجوه الركاب باحثة عن ابنها «نيكولاس» فيقفز قلبها فرحاً كلما وقعت عينها على شاب فى لباس الجامعة

ولكنها كانت فى كل مرة تتفقد ابنها فلا تجده فتندفع إلى العربات وتحدق النظر فى الجمهور الواقف على الرصيف، وهى لا تكاد تصدق عينيها؛ فتسأل وهى حائرة قلقة :

— إلى أين يذهب هذا القطار ؟

فيجيبها رجل : إلى موسكو

— وهل جاء من « كيف » ؟

— نعم

فتصوب المرأة بصرها جهة « كيف » ثم يعلو وجهها ابتسامة حزينة رقيقة لتلك الصورة العزيزة التى ستطلع عليها من وراء ذلك الضباب والدخان — صورة « نيكولاس » العزيز وهو فى لباس الجامعة — ولكن هذه الصورة الحلوة الجميلة سرعان ما تختفى من ناظرها فتهم بالرجوع إلى المنزل وقد فاض بها الحزن حتى كاد يحبس أنفاسها . حتى إذا ما دنت من البيت استيقظ فيها ذلك الأمل من جديد فتتوهم أنها ستجد ابنها هناك فتسرع الخطى وتندفع إلى الباب فى شوق وخوف، ولكنها لا ترى أمامها إلا زوجها الشيخ « ستيبان » يسير فى الغرفة فى خطى متثاقلة، وهو يسعل سعالاً حاداً . فلا يكاد يرى زوجه وحدها حتى يشيح عنها ويدمدم بهذه الكلمات : « كفاك ذهاباً وانتظاراً ! » ثم يصمتان — فكلاهما كان غارقاً فى الأفكار مثقلاً بالهموم — يكاد الدمع ينبجس من عينيه، ولكنهما كانا يقاومان الحزن ويتكلفان الصمت

* * *

كان يتردد على منزل ستيبان صيرف المدينة وهو رجل ثرثار مُدَّعٍ فيقص على الزوجين كيف يعامل المسجونون السياسيون فى السجن، وكيف يحبسون فى حجرات ضيقة ذات فتحات ضيقة ينصب منها الماء حتى تتقلص أبدانهم، ويجمد دماؤهم فى عروقهم، وتقف قلوبهم عن الحركة . فتضطرب ماريا لهول هذا الكلام؛ فتصيح خائفة وجلة : إلهى ! إلهى ! فيحاول الصيرف أن يهدئ ثورة الأم الحزينة فيقول : ولكنهم قد يطلقون سراح البعض منهم . ثم يمضى فى حديثه الطويل المتصل، وهو يشوه الحقائق ويلفق الروايات حتى يسرى الخوف والرعب فى قلبي الزوجين المفجوعين فى وحيدهما العزيز فيقضيان ليلهما على فراش دونه شوك القتاد

* * *

لم يمض على هذا الحديث بضعة أيام حتى كان نيكولاس واقفاً بالباب ، فلم تكد ماريا تراه حتى أسرعت إليه وضمته إلى صدرها والدموع تنهمر على خديها ؛ ثم أخذت تقبله ، وهى لا تكاد تصدق أن « كوليا » قد عاد إليها ، فكانت تنظر إليه وقد اندفعت إلى رأسها آلاف الأسئلة تريد أن تلقيها كلها قبل أن تسمع جواب الأول منها

— هل أنت فى صحة جيدة ؟

— أحقاً أطلقوا سراحك ؟

— إلهى ! هل أنت حى حقاً ؟ !

فنظر إليها فى ابتسامة حزينة مضطربة وقال : « لقد كنت يائساً من لقائك يا أماه ! »

— ولكنى كنت أذهب إلى المحطة كل يوم إذ لم نستطع أن نفكر فيما حدث لك

— الأمر عادى ؛ لقد سجنت بضعة أشهر فى حصن . . .

— وأنقذك الإله ؟ لقد صليت من أجلك يا عزيزى . هل عفوا عنك ؟

— فأجاب كوليا فى ابتسامة رقيقة : « لا . ليس عفواً تاماً ، ولكنهم أرسلونى إليك مراقَبا »

— وماذا هم صانعون بك ؟

— إنى لا أعرف على وجه التحديد ، ولكنى سأدخل الجامعة ثانية فى بحر سنتين

— أظنك فى حاجة إلى الطعام . إنك ضامر هزيل . انتظر قليلاً فلن أغيب عنك

* * *

كان كل شىء على ما هو عليه : فالغرف نظيفة مرتبة والستائر مدلاة على النوافذ وشجرة « الليلاب » لا تزال تغمر الباب بأكاليلها ، ومائدة الطعام ذات الغطاء الأبيض لا تزال قائمة وسط الحجرة . فذكرته هذه بحياته الماضية البعيدة ؛ فالمحبرة كما تركها على المكتب ؛ ومحفظة الأوراق لا تزال عالقة بالحائط ، والأوز يتبختر فى فناء المنزل وهو يضم فراخه الصغيرة الصفراء إليه . فابتسم نيكولاس لهذه الأشياء كأنه قد رآها بالأمس

كانت السماء صافية سافرة ، والهواء رخوا ليناً ، فوقف الشاب فى إحدى النوافذ يرقب الطيور وهى تهرع إلى أوكارها . فأبصر شبحاً يدب من بعيد يثير الغبار بقدميه وعيناه إلى الأرض ، والعصافير تفر من أمامه وهى تشقشق وتتناقر

فاطمأن نيكولاس لهذه المناظر الجميلة المتعددة — منظر الشارع الهادئ المقفر والحمائم الطاهرة والطيور المغردة ، والأوز الصارخ الفرح ، والغرف النظيفة المرتبة — وشعر بوحدته وهدوئه ؛ وسرعان ما أدرك أن له حياتين متميزتين متباينتين : إحداهما هناك حيث كان يعيش ، والأخرى هنا بين أحضان والديه . وأن حياته البعيدة أصبحت تلوح له كأنها قصة خيالية قد قرأها فى أحد الكتب ، وأن حياته فى القرية حياة حقيقية غير متغيرة — كقانون الطبيعة

— أتحب السمك يا عزيزى كوليا ؟

فالتفت كوليا حوله فرأى أمه واقفة وهى تترنح من فرط السرور . وقد شمرت أكمامها استعداداً للعمل . وقال :

— السمك ؟ حسن . إنى لا أهتم كثيراً بالأكل

— إذن اطهى لك بعضاً منه . وسرعان ما عادت حاملة طبقاً به سمك ووضعته على المائدة وهى تقول :

أيها العصاة — علام العصيان ؟ ماذا تريدون ؟

ولكنها لم تنتظر الجواب فلم تكن تريد أن تعرف ماذا يريدون . بل أسرعت إلى المطبخ لترى الزبدة التى كانت على النار . ثم عادت وهى تقول : « سيأتى والدك الآن ، فلا تغلظ له . قد يغضبك ولكنه لا يحتفظ بغضبه عليك طويلاً . إنه شيخ قد عاش طويلاً ، بينما أنت لا تزال تحبو فى الحياة ؛ وليس العمر المجرب الطويل كالسير فى المراعى والحقول

— ومتى يعود أبى ؟

— كعادته كل يوم فى الساعة الثالثة

— وأين يعمل الآن ؟

— فى نفس المكان الذى كان يعمل فيه — فى مناقصات الحرس — ومرتبه كما هو لم يزد . لقد ضعفت أعصابه حتى كادت يده تقف عن الكتابة . فقال نيكولاس وقد غمره الحزن والألم : شىء مرعب ؟

— نعم مرعب ياعزيزى كوليا فقد أصابه شلل كاد يقعده عن العمل . كنا نؤمل أن ... ولكن ماذا ... إنا لا نستطيع أن نعيد الزمن من جديد . كل قبل أن يبرد الطعام . فأخذ نيكولاس يأكل فى تراخ وكسل إذ كان يفكر فى حال والديه وينظر إلى أمه كيف ابيض شعرها ويبست يداها واحدودب ظهرها . بينما هى كانت تديم النظر إلى الساعة تترقب عودة ستيبان تتنازعها مشاعر الخوف والفرح ، فقد كانت تتعجل مجيئه ليرى ابنه الوحيد ، ولكنها كانت تخاف أن يخرج الغضب بالأب فيسىء إلى ابنه . فعملت على تهيئة الجو لهذه المفاجأة الغريبة فقالت : « إن والدك يأتى متعباً من العمل ضجراً بالذباب الكثير الذى يضايقه فى المكتب ، والطريق الطويل الذى يقطعه على قدميه ؛ فأرجو أن تحتمل غضبه وضيقه

أما نيكولاس فقد كان يفكر فى هذه المقابلة يخشى الصدام معه . والحقيقة أنه لم يرد أن يفهم أبداً بأنه كان فى الامكان أن يسلك غير ما سلك إذ كان يشعر دائماً أنه على حق ، ولكنه كان لا يزال مضطرباً يضيق بالخجل الذى يفسد عليه حياته ؛ ثم نظر من النافذة فرأى والده يخطو متثاقلاً كما لو كان أحد الأعيان اللحوظين فى القرية ، وقد أمسك فى يده شمسية ضخمة ، وتأبط محفظة كبيرة

— ماذا يحمل أبى ؟

فأجابته أمه فى لطف : إنها محفظة الأوراق التى يحملها دائماً حتى ولو لم يكن فيها شىء ، كذلك الشمسية وإن لم يكن هناك مطر . فلما دنا الرجل من الأوز اندفعت إليه مشرئبة بأعناقها تعض ساقه ، فوقف فى مكانه وشمخ برأسه وأشار إليها بأصبعه فانكمشت الأوز وهزت ذيولها وعادت إلى أحواضها . ثم خرج نيكولاس الى الباب ولكن ستيبان لم يسرع فى مشيته إذ كان قد علم بمجيئه وهو فى مكتبه بل قال وهو يبتسم : أه ! أه ! هل أتيت ؟ ولم يرد أن يظهر فرحه الذى غمر قلبه لذلك الشاب الذى كان يظن أنه عاق مسىء حتى أنه قد رآه فى الليلة السابقة فى حلم مروع ثقيل كأنه مسوق إلى ساحة الاعدام وقد جاء ليودع والديه ، فتقدم إليه كوليا بوجه شاحب وشفتين مرتجفتين وقال : « يوم سعيد يا أبى ! » فأجابه أبوه : سعيد ياولدى ! ثم عانقه عناقاً قصيراً وسعل سعالاً عالياً . ثم أخذ يسأله عن مجيئه . ثم جاءت ماريا فرأت الأب

يشيح عن ابنه ، فعملت على تخفيف حدة ذلك الموقف فقالت : « احمد الله أيها الأب فقد عاد إلينا ابننا فى صحة جيدة ؛ وهذا كل ما تريد . هيا الى الغداء . هل ضايقك الذباب اليوم ؟

فلم يجب الزوج بل قام الثلاثة الى المائدة ، وأخذ الأب يلقى على ابنه بعض الأسئلة القصيرة المقتضبة فقال :

— وعلى هذا أخرجوك ؟

— نعم

— إذن كنت مجرماً ؟

— نعم

— وتعود إلينا مراقَباً ؟

— نعم

— وماذا تريد أن تعمل الآن ؟

— سأستأنف دراستى

— أى إنك تبدأ من جديد ؛ فاذا ما طردت ثانية رجعت الى الأول

— فأجابت الأم : لم هذا الكلام الآن ؟ لكل شىء نهاية

— فقال الأب : حسن ، وستأتى نهايتنا قريبا . ولكن لماذا طردت يا ولدى ؟

لقد اشتركت فى الثورة ؟

— حسن جداً . ولماذا حبسوك ؟

— لا أعرف

— اسمع يا بنى ؛ إنى مضطر أن أقول لك إنى لم أكن أنتظر هذا العمل منك . لقد كنا مضطرين إلى دفع نفقات المدرسة ثمانى سنوات وأجر المدرس الخاص والكتب والملابس ، وكنت أمنى نفسى بأن هذا كله سيرد إلى . ولكن ظهر لى الآن أن ما عملته قد تلاشى كالفحم المحترق

وترى الأم أن الحديث قد أخذ يشتد والجو يكفهر فتحاول أن تلقى بعض الماء على النار المتأججة فتقول : « كل إنسان عنده أولاد ، وهو مضطر الى هذا العمل . ليس هناك ما يسوء هذا الأحصاء الآن » فأجابها الزوج وهو يسعل سعالاً عالياً : « إنى لا أحصى عليه شيئاً ، فقد قربت نهايتنا ، ولا ننتظر منه شيئاً . لقد عملنا على أن يقف على رجليه . . . ولكن علام التحدث فى هذا وكل إنسان هو الخالق لسعادته » فلم يقو كوليا على سماع باقى الكلام بل ترك أمه تعتب على أبيه وهى تقول : « ما كان ينبغى لك أن تهاجم هذا الشاب بهذه السرعة »

* * *

خرج نيكولاس الى الفضاء يعبث بالأوراق المتساقطة قرب الطريق ويفركها فى يده ثم يغيب فى تفكير عميق وهو واقف أمام ذلك البحر اللانهائى من القمح الأخضر ؛ ثم استولى عليه نوع من اليأس العميق إذ كان كل شىء حوله صامتاً لا يسمع إلا قنابر الحقل تغنى بأصوات مرتعشة متقطعة حتى بدا له أن هذا العالم تافه ثقيل ، وأن أهم مشاكله هى الصحة ؛ فان كانت الصحة جيدة حلت مشكلة الحياة كلها . فيكفى أن تترك قلبك يتأمل هذه الحقول النضرة والأجواء الفسيحة والسحب البيضاء . كل شىء سيكون كما كان من قبل ، وسيأتى الشتاء ويعقبه الصيف ، وستخضر الحقول ثم تغمرها الثلوج ، وستغرد القبرات وستقام الأسواق وستمتلئ القرية بوفود الفلاحين

ثم أخذت القرية تصحو على أصوات الماشية وهى راجعة إلى حظائرها ، فثغاء الشياه وخوار

الثيران كان يختلط بأصوات النساء وهن يصحن على فراخهن لتذهب الى أوكارها ، وأسواط الرعاة تدوى فى الفضاء كأنها طلقات نارية ، ثم امتلأ الجو بسحائب التراب وما ابث الظلام أن لف القرية فى سكون مطبق عميق

* * *

عاد نيكولاس الى المنزل فاستلقى على مقعد كبير فى الحديقة وأخذ يستعيد فى مخيلته صور ما حدث له فى « كيف » وسرعان ما لاحت له صورة تلك الفتاة الغريبة حاملة له اللذة والألم ، فتذكر يوم أن كان يقيم فى سجنه الضيق الثقيل وقد اعتقد أن هذا العالم قد نسيه حتى أمه ووالده ، إذ دخل عليه السجان يقول : « زائر قد جاء إليك ! » فهب نيكولاس واقفا وسار خلف السجان فى ممر طويل مظلم قد فتحت فيه « الزنازين » على أبعاد متساوية فخيل اليه أنها حديقة حيوانات مرقومة الأبواب وخلف كل باب واحد من هذه الحيوانات الضارية

من يكون الزائر ياترى ؟

أيمكن أن تكون أمه ؟ لا ، إنها لاتعلم بسجنه .

قد يكون أحد رفاقه . ولكن كل رفاقه فى السجن أو فى المنفى ، وفوق ذلك فانه لا يسمح بزيارة أحد من رفاقه . إذن لم يأتنى أحد . ثم سأل السجان : من جاءنى ؟

فأوسع السجان الخطو ولم يجب ، فقال نيكولاس : « أحرم علينا أن نتحدث معكم ؟ قد تكون مخطئاً فى استدعائك إياى

فنظر اليه السجان وقال فى هدوء : خطيبتك ؟

— خطيبة ؟ ثم سكت طويلا وقد شعر أن قلبه يثب بين أضالعه . وأراد أن يضحك عالياً من هذه الكلمة الغريبة . ولكنه تمالك نفسه وسار وهو يفكر فيمن تكون هذه الخطيبة

وأخيراً وصل الى حجرة صغيرة كئيبة اللون لم يكن بها إلا نافذة واحدة قد ثبتت فيها قضبان من النحاس ، فنظر نيكولاس الى هذه النافذة فرأى فتاة فى ثوب بنفسجى بديع ، وقبعة من القش قد زينتها بأزهار الربيع . وقد وقف بجانبها ضابط طويل الشارب تلمع حربته فى الفضاء كلما لوح بها أو انتقل من مكانه

فقالت الفتاة فى ابتسامة رقيقة عذبة : نهارك سعيد . فرد عليها الشاب التحية ، ثم أخذ كل منهما يرمق الآخر ، وعبثا حاول نيكولاس أن يتذكر هذه الفتاة إذا كان قد رآها من قبل . كان وجهها مغطى بقناع خفيف قد ألقت عليه أسلاك النافذة ظلا رقيقا ، فلم يستطع أن يتبين قسمات وجهها فقال لها فى استحياء : أتسمحين أن ترفعى القناع ؟

فرفعت الفتاة القناع فسحرته عيناها ، وعلت وجهه حمرة الخجل

وخفض بصره . لا . لا . إنه لم يرها من قبل

وهنا تنبه الضابط لحديث الشاب ، فكان كلما حركت الفتاة يدها لوح هو بسنانه وسفل سمالا عاليا يريد أن يفهمها أنه لا يزال يقظا لما يدور بينهما

— لقد نسيت بكل تأكيد حبيبتك (جاليا)

فأجاب نيكولاس فى غموض : لا . ثم ابتسم فجاجلت ضحكة قوية من الفتاة ، وتألقت أسنانها من خلال الأسلاك

فلوح الضابط بسنانه وقال : « هل تلزمان الهدوء قليلا ؟ »

فقالت الفتاة فى حدة : « أحرام علينا أن

نضحك ؟ ولا أن نصرخ ؟ . . . » ثم سألت نيكولاس إن كان يضحك فى سجنه

فأجابها : « إن الانسان هنا لا يحتاج الى الضحك ولا الى الصراخ . أظن أن العالم فى الخارج جميل جداً الآن »

فأخذت جاليا تصف له قدوم الربيع وفيضان الأنهار ومنظر الطيور وتفتح الأزهار ثم قالت : سأحضر اليك بعضا منها المرة القادمة . أتحب البنفسج ؟

— نعم وسأضعها فى زنزانتى وستذكرنى دائما ..... بك

قال هذا بصوت راجف وهو يحدق فى وجه تلك الفتاة . أى وجه جميل هذا ؟

— لا تحزن . سأجىء اليك كل سبت

ثم دقت الساعة اثنتين وانتهى زمن المقابلة . فقال السجان وهو يفتح الباب :

— تفضلى . فقالت الفتاة :

— لا تحزن ! وداعا ! تذكر أنى ذهبت أن لك أصدقاء

أما نيكولاس فقد تبع السجان وهو مطرق الى الأرض وعيناه تطفران بالدموع ، ولم يكد يصل الى زنزانته حتى أوصدها وراءه وأخذ يغنى فى صوت عال : « هبونى حرية السير . هبونى حرية الحب »

فسمع صوتاً ينهاه عن الغناء والرقص لم يعرف مصدره ، فقد ظن أن الباب يتكلم فأمسك عن الغناء ، وقال :

والحب ! أهو مسموح به هنا ؟

فلم يجبه أحد

وهل يسمح بشعورى هنا ؟

لم يكن هناك من يجيبه

* * *

قضى نيكولاس ذلك اليوم فرحا مغتبطاً ، وقد نسى أنه مسجون وهو يطوف بزنزانته منشداً كوحش كاسر قد ضاق بقفصه

لقد كان هذا اليوم يوم ميلاده ! !

* * *

ثم جاء المساء ؛ مساء السبت !

وهناك فى الأفق البعيد أخذت أجراس الكنائس تدق فبعثت فى نفسه الهدوء ، وأيقظت فيه ذكريات الطفولة الحلوة ، ففتح النافذة وأخذ ينظر إلى تلك السماء الصافية ، وقد أخذت الشمس الغاربة تعكس أضواءها على جدران السجن ، والحمائم ترفرف بأجنحتها فى الفضاء ، فأيقظت فى قلبه شجون الذكرى والألم ، وذكرته بالحرية ؛ ثم اشتد عليه الحزن وزادت به الوحدة وشعر بحاجته إلى التحدث إلى نفسه : من تكون جاليا ؟ ثم استبد به الشوق فتناول عصا صغيرة ، وأخذ يخدش بها على جدران الزنزانة :

« النجوم تضىء لامعة فى السماء الزرقاء

ومن خلال النافذة يهب عبيق الربيع

وعلى الأرض النائمة يجمعون عرائس الأحلام

السابحة على أجنحة الفضاء ! »

ولكنه عاد فمحا ما كتبه واستلقى على سريره يفكر فيمن تكون تلك الفتاة الجميلة

قضى نيكولاس الأسبوع كله يترقب يوم السبت ، وقد شعر أنه لن يأتى . لقد عاش من أجله ولم يفكر فى شىء غيره ، لم يهدأ فى نومه إذ كان

يهب مذعوراً وهو يردد اسم السبت . وأخيرا جاء يوم السبت ، وكان يوما مطيراً ؛ ولكن نيكولاس لم يشعر بذلك ، إذ كان قد نسى كل العالم فى ذلك اليوم

فلما أحضروا الغداء صاح : « هل من زائر ؟ » ولكنه لم يتلق جوابا ، فبقى الطعام كما هو ، وبقى هو ينتظر ، وأخيراً جاء السجان بالعشاء يحمل معه باقة من البنفسج قد ذبلت أزهارها ، فارتجف نيكولاس ، وقال وهو يتناولها فى نغمة حزينة يائسة : وزائرى ! !

فابتسم الحارس ومضى

فنظر نيكولاس إلى الأزهار ، فرأى أمامه جاليا تقتطفها وتقدمها إليه فى ابتسامتها المشرقة العذبة فدفن وجهه فيها ، ثم أخذ يتنسم أريجها ويستنشق فيها عطر الربيع وعبير الحرية ويرضع أوراقها كأنه طفل غرير ؛ ويحنو عليها محاولاً أن يبقى على حياتها بدم شبابه وقلبه ، ولكن هذه الأوراق ما لبثت أن اسودت وتفضنت وماتت ، ولم يبق منها إلا واحدة وضعها بين صحائف كتابه

وإذ هو يفتح هذا الكتاب أبصر تلك الزهرة الذابلة ، فأخذ يفكر فيمن تكون جاليا الفاتنة !

استيقظ نيكولاس عند سماع همس غريب ، فأصغى إليه ، فاذ هو صوت والده يصلى لله ، وقد سمعه يردد فى آخر صلاته : « كذلك ابنى الخاطىء خادمك نيكولاس » ، ثم قام الرجل ونفض عنه التراب ، وجاء إلى ابنه يوقظه ، وهو يقول : « استيقظ . يجب أن تذهب اليوم إلى الشرطة ، وإلا قبض على أنا . عليك أن تمضى ذلك التعهد المكتوب هناك ، ثم تنصرف » ثم فتح الشيخ النافذة ، فمرت بالحجرة نسمة الصباح المنعشة ، وسمع طيور الصباح تغرد على فنن الأشجار ، فاطمأن إلى هذا الهدوء ، وهذا الجمال ، وأغمض عينيه من جديد محاولاً أن يتذكر حلمه الذاهب البعيد فشعر كأن نوراً كنور الصباح المبكر يضىء قلبه المظلم الحزين . آه ! لقد ظهرت له جاليا فى حلمه بملابسها البيضاء وقبعتها المزركشة بأزهار الحقول ، ثم انحنت عليه وهمست فى أذنه قائلة : « استيقظ ! يجب أن تذهب إلى الشرطة ! » ولكن هذا لم يكن همس جاليا بل كان صوت أمه ماريا تذكره بما لم يكن قد نسيه ، فقد أصبحت كلمة « البوليس » تستثيره كلكمة أب . فهب غاضباً وارتدى ملابسه وخرج مشيعاً من أمه بأرق الدعاء وأخلصه ، فقد كانت نفس الكلمة تثير فى قلبها هى أيضاً نوعاً من الألم الغامض الخفى !

* * *

خرج نيكولاس قاصداً مركز الشرطة ، فلم يكد يصل إلى الباب الخارجى حتى هب الناس وقوفا وتهامسوا فيما بينهم أن يريحهم هذا القادم من ألم الانتظار والشكوى . ثم دخل بيتاً مظلماً يريد أن ينقض تفوح منه الرطوبة وتنتشر فيه رائحة الفيران الميتة وقد جلس النساء على الأرض الرطبة المبللة ، ووقف بجانبهن حارس عملاق يفتل شاربه ويغازل صغارهن ، فسأل نيكولاس عن سبب انتظار هؤلاء الناس ، فعلت أصوات متعددة مختلطة : « نحن الشهود أيها الرفيق » ثم سار إلى غرفة الانتظار ، فسمع صخباً وضجيجاً ، فمن صرير الأقلام إلى وقع أقدام الخدم وهم يغدون ويروحون إلى خشخشة الأوراق . وأخيراً أدخل على رئيس البوليس الذى كان جالساً إلى مكتبه منكباً على أكداس من الأوراق ، ولكنه ما لبث أن اعتدل فى كرسيه ونظر إليه

نيكولاس وقال : « حسن . ماذا تريد ؟ إيه . المساواة ؟ إن هذا لا يمكن للشاب أن يناله ! . . . انظر إنك ضامر كالموميا وأنا بدين كالفيل . فى الناس الذكى والغبى — الفقير والغنى — هـذه هى سنة الطبيعة ...

— وأنت ... ؟

— إنى لا أريد شيئاً

— يجب أن تنصرف عن مجالس المهيجين وألا تستمع إلى خطبهم الثورية . إنى لا أحدثك كرئيس للبوليس ولـكن كشخص عاش ولديه كثير من الخبرة والتجارب . أتظن أنى لم أحلم بالمساواة ؟ إلـهى ! لقد حلمنا بها جميعنا ونحن شبان ولـكننا كنا مخطئين . والآن إنك مراقَب هنا . يجب أن تكون تحت أنظارنا دائمـا . ثم خرج نيكولاس بوجه شاحب ممتقع وجسم مرضوض مجهد وفى عينيه بريق الـكراهية وشرر التمرد والثورة

* * *

أمضى نيكولاس بقية اليوم يتجول على شاطىء النهر حتى جاء الليل فتسلل الى كوخه الصغير الذى أقامه فى حديقة المنزل ، وهناك استلقى على مقعد كبير ووضع يديه على وجهه وأخذ يستمع إلى أصوات الأجراس التى كان يحملها إليـه السكون العميق ، ثم لا تلبث أن تذوب فى جوف الفضاء . ولـكنه مالبث أن سمع صوتاً ضعيفاً يقول له : « ألم تنم يا عزيزى ؟ » فالتفت نيكولاس الى مصدر الصوت فرأى أمه واقفة بالنافذة وهى تئن وتبكى

— بربك لا تبكى من أجلى يا أماه !

— وكيف الصبر يا ولدى العزيز ؟

فتركها الابن وذهب الى كرسيه واستسلم للبكاء . فأخذت أمه تتلمس باب الكوخ حتى اهتدت إليه وهناك أسندت رأسها الى ظهر ابنها وأخذت تبكى وتنتحب . وأخيراً قال الابن فى صوت راجف حزين : « يجب أن أذهب بعيداً . ماذا أعمل ؟ » إنى لا أعرف . لا أستطيع احتمال أكثر من هذا . لن أذهب ثانية الى البوليس . بل يجب أن أذهب إلى مكان آخر

— ولـكن ألا ترحم والدك ؟ إنه يصرخ الآن من الألم . ألا ترحم شيخوخته ؟ اكتب التعهد للبوليس . اعمل ما يطلبه منك والدك

فهجمت الذكريات الأليمة على نيكولاس وصاح :

— لا ، لا ، لن أعمل شيئا . سأذهب الى مكان آخر

— الى أين يا عزيزى كوليا ؟ إن والدك سيضطر أن يجيب عنك

— لا ، لا ، لن أذهب

وفى الصباح وجد نيكولاس ملقى فى مقعده ينام نومة الرجل المجهد الذى فزع من هموم العالم وأعباء الحياة

ووجد بجانبه كتاب وعليه زهرة البنفسج الذابلة .

نظمى خليل

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

الطبعة الرابعة

ترجمها أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

وثمنها ١٥ قرشاً